

الدرس الثاني: شرح المسائل الأربع (٢/٢)

عناصر الدرس:

١: شرح المسألة الثالثة وهي الدعوة.

- بيان فضل الدعوة إلى الله تعالى.
- شروط الدعوة.
- آداب الدعوة.
- مراتب الدعوة.
- أنواع الدعوة.
- وسائل الدعوة.
- حكم الدعوة.
- مقاصد الدعوة.

٢: شرح المسألة الرابعة وهي الصبر.

- بيان معنى الصبر.
- فضل الصبر.
- أنواع الصبر.
- حُكْمُ الصبر.
- حاجة الداعية إلى الصبر.

٣: تفسير سورة العصر.

- بيان معنى العصر.
- بيان معنى الخسر.
- بيان أسباب النجاة من الخسران.
- بيان معنى الإيمان.
- بيان معنى الأعمال الصالحة.
- بيان معنى التواصي بالحق.

- بيان معنى التواصي بالصبر.
- بيان أقسام الناس في الإتيان بهذه الأسباب.
- بيان مقاصد سورة العصر.
- ٤: شرح قول الإمام الشافعي.
- ترجمة الإمام الشافعي.
- ٥: شرح قول الإمام البخاري.
- ترجمة الإمام البخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين
أما بعد:

فهذا هو الدرس الثاني من دروس شرح ثلاثة الأصول وأدلتها ألقاه يوم الإثنين الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من السنة الثانية والثلاثين بعد الأربعمائة والألف من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وأبدؤه بشرح المسألة الثالثة: وهي الدعوة.

قال رحمه الله: (الثالثة: الدعوة إليه).

مرجع الضمير إلى العلم الذي عمل به.

أي إن مما يجب على العبد إذا علم وعمل أن يدعو إلى الهدى ودين الحق.

فضائل الدعوة إلى الله تعالى:

- والدعوة إلى الله هي مهمة الرسل والأنبياء، والدعاة إلى الله تعالى على بصيرة هم وارثون للأنبياء متبعون لسبيلهم كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، وقال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾،

• وقد حث الله المؤمنين أن تتدب منهم طائفة للدعوة إلى الخير فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
فالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أسباب الفلاح، **ويطلق في اللغة في الأصل على البقاء ومنه قول الشاعر:**

لكل همٍّ من الهموم سعة والمسي والإصباح لا فلاح معه

أي لا بقاء معه.

ثم كثر إطلاق هذا اللفظ على معنيين مشهورين:

المعنى الأول: الفوز بالمطلوب.

والمعنى الثاني: النجاة من المهروب.

وهذه المعاني الثلاثة تجتمع في حق المؤمنين المتبعين لهدى الله عز وجل فإنهم ينالون مطلوبهم من فضل الله ورحمته وعظيم ثوابه، وينجون مما يخافون من عذاب الله وأليم عقابه، وهم باقون في النعيم المقيم الذي لا ينفد.

• وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فجعل الله قول الداعي إليه أحسن القول.

• وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي يوم خيبر:

«أَنْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزَلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ». متفق عليه.

وحمر النعم هي الإبل الحُمُر، وهي كرام الإبل عند العرب، وأنفسها وأغلاها ثمنًا، وسميت حُمُرًا على عادة العرب في التوسع في التسميات وإلا فهي ليست حمراء اللون خالصةً، وإنما تقاربه.

كما يقولون الإبل الصفر للتي يميل لونها إلى السواد.

والمقصود أن اهتداء رجل واحد على يديه خير له من هذه الإبل الكرام النفيسة، وهذا يفيد الداعي أن يجعل همته لما هو خير له عند ربه وأنفع، وأن يقدم الثواب الباقي على العاجل ولو أمكن أن يحصل هذا الثواب العاجل بطريقة قد يتأول فيه من لا يفقه الدعوة على النهج الصحيح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يترث ولا يستعجل مبادرتهم بالقتال بل يدعوهم رجاء أن يهديهم الله، فإذا أجابوا فقد عصموا دماءهم وأموالهم ودخلوا في دين الله وحرّم على المسلمين قتالهم وأخذ غنائمهم، وإذا كانت المهمة للدعوة لا لأخذ الغنيمة والتشفي بقتال العدو كان القصد صالحاً، وكان القائم على هذه الدعوة متسماً بالفقه الصحيح، فإن أبى أولئك المدعوون إلا القتال جاز قتالهم وكان المؤمنون موعودين بالنصر عليهم.

فإن خالفوا الهدى واستعجلوا القتال كان ذلك سبباً قد تحصل به الهزيمة فإن من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه.

• وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»** رواه مسلم.

• وهذا يدل على عظيم ثواب الدعوة، فرب كلمة يقولها المرء لا يلقي لها بالاً ينتفع بها غيره فيمتثلها وتخرجه من الظلمات إلى النور فيكون للداعي بها مثل أجر من دعاهم وأرشدهم.

• بل لو بلغ هذا المنتفع بدعوته غيره لكان للداعي الأول مثل أجره، وهكذا ما تسلسل به الأمر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

• ولهذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم مثل أجر جميع من يعمل صالحاً من أمته لأنه هو الذي دلهم على هذه الأعمال الصالحة.

• وكذلك رواية الأحاديث الصحيحة التي بلغونا إياها ورووها لنا يكون لهم مثل أجور من يدعوهم إلى الهدى.

- فانظروا إلى عظيم فضل الله لمن جعل نيته لله ، وقصد ثواب الله ، وابتغى وجه الله .
- وانظروا ماذا خسر من أراد بدعوته الرياء والسمعة ولم يرد إلا الحياة الدنيا. نعوذ بالله من الخذلان.

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً» رواه مسلم.

• وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ : «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئاً ، فَبَلَغَهُ كَمَا سَمِعَهُ ، فَرُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ». رواه الترمذي.

• قال أبو سليمان الخطابي : (قوله : «نضر الله» معناه الدعاء له بالنضارة وهي النعمة والبهجة).

- ولذلك تجدد الدعاء إلى الله من أشرح الناس صدرًا ، وأنضرهم ، وأبهجهم ، فإنهم وإن ابتلوا ببعض ما يبتلي الله به عباده إلا أن قلوبهم في نعيم بمعرفة الله عز وجل والأنس به والاشتياق لرؤيته ونيل رضوانه الذي كتبه لأهل محبته وذكره ، وهم في حياة طيبة ، قلوبهم مطمئنة بذكر الله ، تغمرهم السكينة ، ويجدون في قلوبهم حلاوة الإيمان ، وبرد اليقين ، وعزة الطاعة ، فهم من أحسن الناس حياة على الحقيقة.

• حتى إنه ليقول قائلهم : (مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ محبة الله تعالى ومعرفته وذكره)

• والداعي الذي يدرك هذه الفضائل أحسن إدراك إنما هو الذي يقوم بما تقتضيه من الشروط والواجبات والآداب ، وهي أمور يسيرة لمن يسرها الله تعالى له.

شروط الدعوة:

- فمن شروط الدعوة أن يكون الداعي على بصيرة فيما يدعو إليه ، وعلى بصيرة بصحة طريقة الدعوة ، وعلى بصيرة بحال المدعو فيدعوه بما يناسب حاله ، فيأتسي بهدي النبي صل الله عليه وسلم في ذلك ، ولا يحدث الناس بما لا تقبله أفهامهم من دقيق العلم ، قال علي بن أبي طالب : (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله).
- وعلى الداعي أن يراعي المصلحة الشرعية في الدعوة إلى الله ؛ فإذا خشي السامة على المدعويين أمسك حتى لا يُملِّهم ، وإذا ترتب على إنكار المنكر مفسدة أعظم فإن الحكمة تقتضي عدم الإنكار.

وهذا باب يتعلمه طالب العلم بتوسع فيما بعد في فقه الدعوة لكنني أحببت أن ألخص لكم أهم المسائل التي يذكرها أهل العلم في هذا الباب ؛ لأن طلاب العلم عموماً وطلاب علم العقيدة على وجه الخصوص يحتاجون كثيراً إلى فقه مسائل الدعوة إلى الله.

آداب الدعوة:

- من آداب الداعية في نفسه : أن يكون ممثلاً ما يدعو إليه ، ملتزماً تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً ، متحلياً بكارم الأخلاق مجتنباً مساوئها ، فإن وقع في شيء من المعاصي والتقصير بادر إلى التوبة والاستغفار وإتباع السيئة الحسنة فإنها تمحوها.
- فالداعية ليس بمعصوم بل قد يقع في الذنوب والمعاصي ، لكن يجب عليه أن يتوب إلى الله إذا وقع في شيء من تلك المعاصي حتى لو كانت كبيرة من الكبائر ، فالتوبة تجب ما قبلها ، والله تعالى يفرح بتوبة عبده ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾.
- فلا يمنعه وقوعه في الذنب من مواصلة الدعوة.
- وقد أنشد بعض الصالحين :

لو لم يعظ في الناس من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد

- قيل للحسن البصري : إن فلاناً لا يعظ ويقول : أخاف أن أقول ما لا أفعل ، فقال الحسن : (وأينا يفعل ما يقول؟!)

وَدَّ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ ظَفَرٌ بِهَذَا فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدًا بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مَنكَرٍ.

• وقال مالك عن ربيعة: قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر، قال مالك: وصدق! ومن ذا الذي ليس فيه شيء؟!

• قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

(فَكُلُّ مَنْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَفَعَلَهُ وَاجِبٌ، لَا يَسْقُطُ أَحَدُهُمَا بِتَرْكِ الْآخَرِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها.

والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه). هـ. وهو كلام صحيح مسدد، لأن الذي يترك المعروف ولا يأمر به عند وجوب الأمر به يكون قد ارتكب معصيتين.

وكذلك الذي يفعل المنكر ولا ينكره قد وقع في معصيتين؛ معصية فعل المنكر، ومعصية ترك الإنكار.

لكنه إذا قام بالدعوة والإنكار كان ذلك سبباً معيناً له على امتثال ما يأمر به من المعروف واجتناب ما ينهى عنه من المنكر، ولا سيما إذا تضرع لله تعالى أن ينجيه مما وقع فيه من المخالفة، وبذل أسباب الإقلاع عن الذنب، وأكثر من الاستغفار، فإنه يرجى له أن يوفق للتوبة النصوح.

فالتقصير في العمل لا يبرر التقصير في الدعوة، وليس ذلك لأحد بعذر في ترك الدعوة إذا علم وجوبها عليه.

- ومن آداب الداعية في دعوته: أن يبدأ بالأهم، وأن يحدث الناس بما يناسب أفهامهم، ويستعمل الحكمة في جميع أموره فيلين في موضع اللين، ويغلظ حين يحسن أن يغلظ،

وإذا وعظ أحسن الموعظة واقتصد فيها فلا يكثر فيملهم ، ولا يجفو فيطول عليهم الأمد فتفسو قلوبهم ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا الموعظة في الأيام كراهة السأمة علينا) متفق عليه.

والدعوة لها مراتب بعضها مقدم على بعض ؛ فمن كانت تجدي معه الموعظة الحسنة لا يحسن أن يجادل ، لأنه مستجيب منقاد للحق ليس لديه شبهة تمنعه من الانقياد له فهذا يذكر فتتفعه الذكرى إن شاء الله كما قال الله تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

- وأما من كانت لديه شبهة تصده عن الحق فهذا ينتقل معه إلى مرتبة المجادلة بالتي هي أحسن.

- وأما الظالمون المعتدون الذين لا يليق بهم إلا الغلظة والشدّة فيغلظ عليهم. وكذلك بعض من يرتكب المنكرات ويجاهر بها ولا يستجيب للنصح الرفيق فمثل هذا يغلظ عليه إذا كان لأهل الحق ولاية عليهم ، لأن ذلك من حسن السياسة الشرعية ، ولأن الإغلاظ في موضعه من وسائل التربية الصحيحة إذا قام به من هو أهل لذلك.

والمقصود أن الدعوة لها مراتب لكل حال مرتبة تناسبها كما تدل على ذلك أدلة الشريعة. ولا يقتضي أن تكون على التدرج مطلقاً ، بل قد يقدم تلك المراتب على بعض المصلحة شرعية تقتضيه ، ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» فبدأ بالإنكار باليد وذلك حين يكون للإنسان ولاية أو وجهة تخوله الإنكار باليد ولم يخش فتنة أكبر.

وهذا الإنكار يختلف حاله ، فأحياناً يناسب أن يكون باللين والرفق ، وأحياناً يناسب أن يكون بالغلظة والشدّة بحسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية ، وإن كان الغالب أن الرفق مقدم على الشدة ، وهذا أصل مهم في الدعوة ، أن الرفق مقدم ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : «الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه». رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمرجع في هذا هو اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم فإنه أحياناً يحسن بالداعية أن يغلظ في الخطاب ليبين للمدعو شناعة ما أقدم عليه ، كما أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على عمر في قصة صحيفة أهل الكتاب ، وكما أنكر على أسامة بن زيد في شفاعته في حد من حدود الله ، وكما أنكر عليه أيضاً قتله من قال لا إله إلا الله في المعركة حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم إلا ذلك اليوم.

وعامة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من الغلظة في الإنكار تجده لبيان مراعاة حد من حدود الله ، وحرمة من حرماته ليزجر المدعو عن ذلك ويبين له عظم شأن تلك القضية.

وغالب ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم هو استعمال الرفق واللين ولذلك فهو الأصل إلا حين تقتضي المصلحة الشرعية الغلظة والشدّة ، وهذا كما يجده الإنسان في تعامله مع أولاده ومن تحت يده من الصبيان ونحوهم فيجد أن بعض الأمور يناسب فيها الرفق واللين ، وبعض الأمور تقتضي الشدة والغلظة وعدم التهاون والتلطف معهم فيها ليميز أولئك الصبية أن بعض الأمور من الخطر عليهم اقترابها ، وليتربوا على مراعاة الحدود والحرمات.

لكن مما ينبغي التنبيه له أن هذا الإغلاظ متضمن لمعنى الرحمة لأن سببه والداعي له نصحُ المنكر عليه وزجره عما يضره في دينه ، ولذلك لا يجوز أن يفضي به الإغلاظ إلى السب والشتم وقول ما لا يجوز قوله ، ولا يجوز له أن يكون قصده الإضرار بالمنكر عليه.

إلا في الإغلاظ للكفار والمنافقين كما قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُئَسُّ الْمَصِيرُ﴾.

وهؤلاء إنما شرع الإغلاظ في حقهم لبغيهم طغيانهم ومشاققتهم لله ولرسوله ، وإلا لو أنهم استجابوا لله ورسول لما جاز الإغلاظ عليهم كما قال الله تعالى في المنافقين : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

وما أحسن ما قاله بعض أهل العلم :

ولو أن فرعون لما طغى وقال على الله إفكاً وزورا
أناب إلى الله مستغفراً لما وجد الله إلا غفورا

هذا خلاصة ما يتعلق بأحوال جواز الإغلاظ وهو مبني في أصله على الرحمة كما تقدم، وله تفصيل تدرسه فيما بعد في فقه الدعوة إن شاء الله تعالى.

أنواع الدعوة:

- **والدعوة لها أنواع منها:** دعوة الكافر إلى الإسلام، ودعوة المسلم إلى مزيد من الهداية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم الشرعي، والنصيحة لكل مسلم، كل ذلك من أنواع الدعوة إلى الله تعالى.

وسائل الدعوة:

- وينبغي للداعية أن يعتني بما ييسره الله له من وسائل الدعوة وهي كثيرة متنوعة والله الحمد، وأول ذلك أن يتمثل الداعية ما يدعو إليه فيكون إماماً يؤتم به ويقتدى به في الخير، ومن أكثر ما يؤثر في المتعلمين قيام المعلمين بما يقتضيه العلم، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس عملاً وخير الناس دعوة كما كان أحسنهم علماً.
- ومن وسائل الدعوة: إلقاء الخطب والدروس والمواظ على كتابة المقالات والرسائل وتأليف الكتب النافعة واستخدام تقنيات العصر في الدعوة إلى الله كالإذاعات والفضائيات ومواقع الانترنت وغيرها.
- وفي هذا المجال من أبواب الخير العظيم ما لا يحصى إلا الله عز وجل، فليحرص المؤمن أن يأخذ منه بنصيب وافر.
- ووسائل الدعوة كثيرة ومتيسرة والله الحمد؛ فمن فتح له في وسيلة من الوسائل فليعتن بها لعلها تكون له سبباً موصلاً إلى رضوان الله تعالى وجنت النعيم.

وكم من عمل اجتهد المرء فيه فأتقنه ورعى أمانته وقام به حق القيام فكان سبباً في فوزه برضوان الله عز وجل ودخول جنته.

وفي الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من الدلائل بالإخبار عن بعض من كتب الله له دخول الجنة بسبب عملٍ عملَه ما يدلُّك على أهمية العناية بهذا الأمر.

• وإنَّ أحبَّ العمل إلى الله أدومه وإن قلَّ.

حكم الدعوة:

وأما حكم الدعوة إلى الله تعالى فهو فرض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط الإثم عن الباقي لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

هذا الحكم من حيث الأصل، وقد تتعين في أحوال:

- فمن رأى منكراً وجب عليه تغييره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه.
 - ومن سئل عن علم وجب عليه بيانه وحرّم عليه كتمانها لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
 - ومن استنصحه أخوه المسلم وجبت عليه نصيحته.
 - وكذلك إذا دعت الحاجة إلى البيان لم يجوز تأخيرها.
- فهذه مواضع تجب فيها الدعوة.

وما هو القدر الذي إذا أداه العبد يكون داعياً إلى الله؟

- **الجواب:** إذا قام بالقدر الواجب من الدعوة فهو من الدعاة إلى الله ؛ وكلما ازداد تقرباً إلى الله تعالى بالدعوة إليه زاد نصيبه من فضل الله والرفق لديه.
- ومن وقع في شيء من التقصير فيما وجب عليه من الدعوة فتأب وأتاب السيئة الحسنة فهو من الدعاة إلى الله.
- وينبغي للطالب أن يعتني بفقته مقاصد الدعوة، وقد خصها بعض أهل العلم في ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: إقامة حجة الله تعالى على خلقه كما قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

المقصد الثاني: براءة ذمة الداعية والإعذار إلى الله بامتناله أمر الدعوة وقيامه بما وجب عليه كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. فقدموا المقصد الأول وهو الإعذار إلى الله تعالى، وبراءة ذمتهم.

المقصد الثالث: رجاء أن ينتفع المدعو بالدعوة فيستجيب لما ينجيهِ من العذاب ويوفق بسببه لنيل الثواب كما دل عليه قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولعل حرف ترحي، والتقوى تكون بامتنال الأمر واجتناب ما نهى عنه.

وفقه مقاصد الدعوة يفيد في الحكم على وسائل الدعوة المعاصرة فما كان منها يحقق هذه المقاصد فهو من الوسائل المشروعة.

وكل وسيلة تتضمن محذوراً في نفسها أو يترتب عليها مفسدة أعظم فإنها لا تحقق مقاصد الدعوة.

□ شرح المسألة الرابعة وهي الصبر

معنى الصبر:

معنى الصبر معلوم مستقر في النفوس ، وقد تنوعت عبارات العلماء في التعبير عنه ، ومن أجود هذه العبارات فيما أحسب :

- قال أبو عبيد : أصل الصَّبْر الحَبْس وكل من حَبَسَ شيئاً فقد صبره.
 - قال أبو حيان : الصبر حبس النفس على المكروه.
 - قال ابن تيمية : الصبر فيه جمع وإمساك ولهذا قيل : الصبر حبس النفس عن الجزع.
 - قال ابن القيم : الصبر هو حبس النفس عن محارم الله ، وحبسها على فرائضه ، وحبسها عن التسخط والشكاية لأقداره.
 - قال ابن حجر : أحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه وعقد اللسان عن الشكوى والمكابدة في تحمله وانتظار الفرج.
- وهذه العبارات تفيدك بمجموعها معرفة معنى الصبر.

منزلة الصبر:

والصبر له فضائل عظيمة وقد ذكر الله الصبر في القرآن في مواضع كثيرة ، قال الإمام أحمد رحمه الله : (ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعاً).

وقد أحسن ابن القيم رحمه الله في كتابه "عدة الصابرين" في ذكر هذه المواضع وتصنيفها تصنيفاً حسناً فليراجعه من أراد الاستزادة.

قال الله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وقال : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. وبين أن الصبر واليقين سبب لنيل الإمامة في الدين ، فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

- وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «والصبر ضياء» رواه مسلم.

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» متفق عليه.
- وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها» متفق عليه.
- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله» رواه وكيع في الزهد موقوفاً بإسناد صحيح، وروي مرفوعاً بإسناد ضعيف. وروى عبد الرزاق في مصنفه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (خمسٌ أحفظوهن، لو ركبتم الإبل لأنضيتموهن قبل أن تدركوهن: لا يخاف العبد إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، ولا يستحيي جاهل أن يسأل، ولا يستحي عالم إن لم يعلم أن يقول الله أعلم، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد إذا قطع الرأس نتن باقي الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له).

أنواع الصبر:

والصبر له أنواع ثلاثة:

- ١: الصبر على طاعة الله.
 - ٢: الصبر عن معصية الله.
 - ٣: الصبر على المصائب المقدرة
- والمسلم مطالب بهذه الثلاث كلها،
- فمثال الصبر على طاعة الله قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.
 - وأما الصبر عن المعصية، فكل من أمسك عن معصية فقد صبر عنها، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه طريق الهجرتين عشرة أسباب تعين على الصبر عن المعصية

(أخلصها لكم في كلمات ومن أراد الاستزادة فليراجعها وحبذا لو نقله أحدكم لينتفع به):

١: العلم بقبح الذنب وأنه شر في نفسه.

٢: الحياء من الله.

٣: قصد المحافظة على نعم الله، فإن المعاصي تزيل النعم.

٤: خوف الله تعالى وخشية عقابه.

٥: محبة الله تعالى فإن المحب الصادق لا يعصي من أحب.

٦: المحافظة على شرف النفس وزكائها وطهارتها لأن المعصية تدنسها.

٧: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها.

٨: قصر الأمل واليقين بسرعة انقضاء الحياة.

٩: مجانبة الفضول في الطعام والشراب والنوم والمخالطة وغيرها وترك ما لا يعني المرء.

١٠: قال: (هو الجامع لهذه الأسباب كلها ثبات شجرة الإيمان في القلب فصبر العبد عن

المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم وإذا ضعف الإيمان

ضعف الصبر فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له وتحريمه لما حرم عليه

وبغضه له ومقتته لفاعله وباشر قلبه الإيمان بالشواب والعقاب والجنة والنار امتنع من أن لا

يعمل بموجب هذا العلم).

ومثال الصبر على المصائب المقدرة قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ

وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُهْتَدُونَ﴾.

وقد اجتمعت أنواع الصبر كلها في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فحكم الله تعالى

إما كوني وإما شرعي.

فالحكم الكوني هو القضاء والقدر، والصبر عليه يراد به الصبر على المصائب المقدرة. **والحكم الشرعي هو الأمر والنهي** : فامثال الأمر هو فعل الطاعات ، واجتناب النهي هو ترك المعاصي.

والصبر عن المعاصي أفضل من الصبر على المصائب ، لأن المعاصي تكون باختيار العبد ، والمصائب لا اختيار له فيها.

حكم الصبر :

ومعرفة أنواع الصبر تفيد في بيان حكمه ، فإن معرفة حكم الصبر ، وما يلحق العبد من الإثم بتركه وما لا يآثم فيه مبني على معرفة أنواع الصبر.

١ : فالصبر على الطاعات الواجبة واجب ، كالصبر على أداء الصلاة المفروضة ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ، وأما الصبر على الطاعات المستحبة فهو مستحب ، يثاب عليه فاعله ، ولا يآثم تاركه.

٢ : والصبر عن فعل المعاصي واجب ، ويتأكد وجوبه في الصبر عن إتيان الكبائر ، وأما الصبر عن المكروهات فهو مستحب ، يثاب عليه فاعله ، ولا يآثم تاركه.

٣ : وأما الصبر على المصائب المقدرة فهو واجب بحيث لا يجزع ولا يتسخط على الله ، وأما الرضا بالمصيبة فهو مستحب على الصحيح ، ولا يناله إلا أصحاب البصائر وأولوا الألباب لأنهم يدركون أن ما يقضيه الله تعالى للمؤمن خير له وأحسن عاقبة إذا اتقى الله واتبع رضوانه.

وحزن القلب ودمع العين والتأذي الطبيعي من المصيبة ليس من الجزع إذا كان القلب مؤمناً بقضاء الله مسلماً لأمره.

والقدر الواجب الذي ذكرته لكم من هذه الأمور متفق عليه بين أهل العلم ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها ، والصبر عن اتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه).

وقال ابن القيم رحمه الله : (الصبر الواجب ثلاثة أنواع:

أحدها: الصبر عن المحرمات.

والثاني: الصبر على أداء الواجبات.

والثالث: الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها.

وأما **الصبر المندوب** فهو الصبر عن المكروهات والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله).

هذا تلخيص هذه المسألة ، ولها تفاصيل تدرسونها في مراحل لاحقة إن شاء الله تعالى.

حاجة الداعية إلى الصبر:

- ومن سنن الله تعالى أنه يجعل للدعاة إليه أعداء من المجرمين يتبلى بهم صدق أوليائه ويقينهم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا﴾.

فتكفل الله لهم بالهداية والنصر ، وهذا يفيدك بيان ما يحتاجه من يتبلى بعداوة المجرمين فهو يحتاج إلى الهداية التي يرشد بها ويوفق بها لسلوك سبيل النجاة ، ويحتاج إلى من ينصره على من ناصبه العداء واجتهد في الإضرار به ، فتكفل الله له بهذين الأمرين العظيمين ، ولم يوكل ذلك إلى أحد من خلقه بل تولاه بنفسه جل وعلا فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا﴾ فإذا أيقن الداعي إلى الله بهذه الحقيقة الإيمانية لم يخش إلا الله ، وكان وثوقه بهداية الله ونصره وتصديقه بوعده سبباً في طمأنينة قلبه ورباطة جأشه وثباته على الحق والهدى.

وتأمل تقديم الله تعالى للهداية على النصر فهو ترتيب أولوية فإن من عميت عليه سبيل الهداية كان احتياجه إلى الهداية أولى من احتياجه للنصرة المترتبة عليها.

فيجب على الداعية أن يصبر على ما يدعو إليه من الحق وأن يصبر على ما يصيبه منه المشقة والأذى ، وقد وعد الله عباده المؤمنين بالنصر ، ووعدته حق لا يتخلف قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ وقال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ .

□ ثم ذكر المؤلف الدليل على هذه المسائل الأربع وهو قول الله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ❖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ .

وهذه السورة تدل على هذه المسائل الأربع ، فالإيمان لا يكون إلا بعلم ، إذ لا يتصور أن يؤمن الإنسان بشيء لا يعرفه .

□ وقوله : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ نص على مسألة العمل بالعلم ، والعمل لا يكون صالحاً إلا إذا كان خالصاً لله تعالى ، وصواباً على سنة النبي صلى الله عليه وسلم . والتواصي بالحق هو الدعوة إلى الله تعالى ، وهي المسألة الثالثة .

والتواصي بالصبر نص في المسألة الرابعة .

فتضمنت هذه السورة الدلالة على وجوب هذه المسائل الأربع ، لأن كون هذه المسائل سبباً للنجاة من الخسارة فيه دلالة على وجوبها ، لأن من لم يأت بها فهو خاسر . وقد سبق الحديث عن هذه المسائل بشيء من التفصيل المقتضب .

□ قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ الواو للقسم ، والعصر فيه أقوال أشهرها قولان :

الأول : أنه الدهر ، وهذا القول ذكره البخاري في صحيحه عن الفراء ، وهو قول أكثر المفسرين ورجحه ابن القيم .

والقول الثاني : أنه وقت العصر من اليوم ، وهو مروى عن ابن عباس وقال به الحسن البصري وقتاده .

واختار ابن جرير أن الآية تشمل القولين لأن لفظ العصر يطلق على المعنيين إطلاقاً صحيحاً ولا دلالة على التخصيص .

والقول الأول له مناسبة وهو أن الدهر فيه الأعاجيب والعبر، والقول الثاني له مناسبة أيضاً وهي أن العصر هو علامة بينة على الخسار النهار وقرب انقضائه فمناسبته لحال القسم ظاهرة.

والله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، وليس للمخلوق أن يقسم بغير الله عز وجل لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو فليصمت» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ هذا جواب القسم، والإنسان اسم جنس فيعم جميع الناس إلا من استثنى الله منهم في هذه السورة، والاستثناء دليل على إرادة الجنس، فالألف واللام لاستغراق الجنس أي إن كل إنسان في خسر إلا من استثناهم الله. ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ اللام موطئة لجواب القسم، والتكثير هنا للتحويل والتفخيم، أي في خسارة عظيمة، وتأملوا هذا التعبير ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، كأنه منغمس في الخسران، محيط به من جميع جوانبه.

والخسر هو الخسران ويعني: الهلاك والنقصان.

وأعظم الخسران خسران الإنسان نفسه وأهله يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۖ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۖ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فتبين أن من لم يأت بالإيمان فهو خاسر، وأن من لم يؤمن بالله فهو ظالم لنفسه، وقد قال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ۖ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ۖ وَمَا كَانَ لَهُمْ

مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ❖ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ❖.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة».

فأيُّ خسران أعظم من خسران الكافر مقعده من الجنة في النعيم المقيم الخالد، فهو في العذاب المقيم، وأهل الجنة في الحبور والسرور مع أهلهم في النعيم المقيم ❖ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ❖.

إذا تبين ذلك فإن الإنسان لا ينجو من هذا الخسران إلا **بهذه الأمور الأربعة** : الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وهذه الأمور الأربعة مترتبة بعضها على بعض فالإيمان أساس العمل الصالح، فلا يصلح العمل إلا بالإيمان، والتواصي بالحق هو من الأعمال الصالحة، وخُص بالذكر لأهميته، والتواصي بالصبر هو أيضاً من هو من التواصي بالحق ؛ لأن الصبر المأمور به إما واجب وإما مستحب، والتواصي تواصي بفعل الواجب أو فعل المستحب.

فصارت مرتبة الإيمان هي الأصل وينبني عليها العمل الصالح وينبني عليهما التواصي بالحق وينبني على ذلك كله التواصي بالصبر.

ولذلك جاء في الأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما تقدم أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

فمن قام بهذه الأمور فقد سلم من الخسران وفاز فوزاً عظيماً.

ومن لم يقم بها فقد خسر خسراناً عظيماً.

ومن قصر في شيء من هذه الواجبات بما لا يخرج من الإسلام، بحيث يبقى معه أصل الإيمان وأصل العمل الصالح، مع ارتكابه من المعاصي والمحرمات ما يضعف الإيمان ويقدح

في قيامه بالأعمال الصالحة فإنه يناله من الخسارة بقدر ما فرط فيه إلا أن يعفو الله عنه. فصار الناس في تحقيق هذه الأمور الأربعة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هم الذين لا يأتون بها كلها، أو لا يأتون بأصلها وهو الإيمان، لأن ما بني على غير إيمان فهو غير مقبول، وهؤلاء هم الخاسرون الخسارة العظيمة، وهم الكفار الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات، ويلتحق بهم كل من أحبط عمله وخرج من الإيمان بارتكابه ناقضاً من نواقض الإسلام والعياذ بالله، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وتوجيه الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن أمر الشرك لا يعفى عنه أبداً مهما بلغ صلاح العبد وكثرة عمله، إذا وقع في الشرك الأكبر حبط عمله وكان من الخاسرين، والعياذ بالله، فهذا الخطاب يقتلع جذور العجب والاغترار من القلب. فإذا كان أحب الناس إلى الله وأقربهم منه منزلة لا يعفى عنه في أمر الشرك بالله فغيره أولى، وحاشاه صلى الله عليه وسلم من الشرك، ولكن هذا الأسلوب يفيد التأكيد الشديد على أنه لا يعفى عمن صدر منه الشرك مهما كان قدره ومنزلته وسابقته عمله، وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، وحاشاها رضي الله عنها من السرقة.

والمقصود أن من لم يؤمن بالله فهو من الخاسرين.

وكذلك الذي تخف موازينهم من الأعمال الصالحة وعلى رأسها التوحيد فإنهم من الخاسرين كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾. أما من كان معه حسنة التوحيد فإن موازينه لا تخف كما تخف موازين الكفار.

والقسم الثاني: الذين يأتون بهذه الأمور الأربعة كما أوجب الله فهؤلاء هم المفلحون الناجون من الخسارة الفائزون بالثواب العظيم، ويزيد الله من فضله من يشاء. فإن المؤمنين يتفاضلون تفاضلاً عظيماً في الإتيان بهذه المسائل.

والقسم الثالث: من كان معه أصل الإيمان وأصل العمل الصالح لكنه يرتكب من المحرمات ويترك من الواجبات ما يستحق به العذاب ، فهذا القسم يناله من الخسارة بقدر ما فرط فيه إلا أن يعفو الله عنه.

فهذا بيان أقسام الناس في الإتيان بهذه الأمور الأربعة.

□ قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ التواصي هو أن يوصي بعضهم بعضاً ، وهذا كما يدل على وجوب الدعوة بإيضاء الآخرين بالحق ، يدل على وجوب قبول الوصية بالحق إذا وجهت إليه.

لأن التواصي تفاعل بين اثنين ، هذا يوصي أخاه وعلى أخيه قبول الوصية ، وعلى أخيه أيضاً إذا أوصاه أخاه أن يقبل وصيته بالحق.

والحق هو امتثال ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، وتصديق خبر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فمن قام بذلك فهو قائم بالحق.

والتواصي بالصبر يشمل التواصي بالصبر على فعل المأمور ، والتواصي بالصبر على ترك المحذور ، والتواصي بالصبر على المصائب المقدرة ، فيصبر ويصبر إخوانه المسلمين. فهذه السورة تضمنت على وجازتها الدلالة على الدين كله لأن مبنى الدين على الأمر والنهي والخبر والقدر

ففعل الأوامر وترك النواهي وتصديق الأخبار والإيمان بالقضاء والقدر هو الحق الذي يجب التواصي به والصبر على أدائه.

وإذا تأملت هذه السورة تأملاً حسناً علمت ما يحبه الله من عباده المؤمنين ؛ فهو يحب منهم الإيمان والقيام بالأعمال الصالحة وأن يتآلفوا ويتوادوا ويتواسوا ويحب بعضهم لبعض الخير ، فيتواصون بالحق وفعل ما يحبه الله ليكون بعضهم سبباً في ثواب بعض ، ويتواصون بترك ما حرم الله ليكون بعضهم سبباً في نجاة بعض ، ويتواصون على الصبر فيكونون متواسين متآلفين متحابين.

ومن عرف ذلك حق المعرفة ؛ عرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذا رأيت من نفسك أنك تسر إذا رأيت من يطيعُ الله عز وجل وتبتهج لذلك ، وتحزن إذا رأيت من يعصيه وتتمنى ألا يقع في المعصية ؛ فإن ذلك دليل على صحة إيمانك وسلامة قلبك.

وإن من أقبح ما يكون من الحسد أن يحسد المرء أخاه على قيامه بطاعة الله ويتمنى منه أن يقع في المعاصي ويحرم فضل الله عز وجل ؛ فإن هذا من إخوان الشياطين والعياذ بالله ، بل يخشى عليه أن يبتلى بما تنهاه لأخيه المسلم.

إذا قامت الأمة بهذه الأمور الأربعة (الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر) كانت كما يحب الله عز وجل أن تكون ، وكان الله لهم كما وعدهم والله لا يخلف الميعاد.

شرح قول الإمام الشافعي رحمه الله

قوله : (قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : (هَذِهِ السُّورَةُ لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هِيَ لَكَفَتْهُمْ).

الشافعي هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع وإليه نسبة الشافعي وهو من بني المطلب بن عبد مناف فهو قُرَشِيٌّ مُطَّلَبِيٌّ.

قال تلميذه الربيع بن سليمان المرادي : (ولد الشافعي يوم مات أبو حنيفة رحمهما الله تعالى).

وكان ذلك سنة ١٥٠ هـ ، وقد طلب العلم وهو صبي ، حدث عنه تلميذه المزني أنه قال : (حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين ، وحفظت "الموطأ" وأنا ابن عشر).

وكان يقول : جعلت لذتي في العلم.

وقال الحميدي: سمعت الشافعي يقول: كنت يتيماً في حجر أُمِّي، ولم يكن لها ما تعطيني للمعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب، وأخفف عنه. وقال: كنت أكتب في الأكتاف والعظام.

وحبب إليه طلب العلم والرمي حتى مهر فيهما.

وأجازه شيخه مسلم بن خالد الزنجي بالإفتاء وهو ابن خمس عشرة سنة. والكلام في سيرته وماتضمنته من الدروس والأعاجيب والعبر يطول، وهو ذو شجون؛ فقد كان آية في الصبر على طلب العلم والتفقه في الدين، ولقد ابتلي بقله الرزق فصبر، ومن شعره:

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني	بنجوم أقطار السماء تعلقني
لكن من رزق الحجي حرم الغنى	ضدان مفترقان أي تفرق
وأحق خلق بالله بالهم امرؤ	ذو همة يبلى برزق ضيق
ولربما عرضت لنفسي فكرة	فأود منها أنني لم أخلق
لكن من رزق اليسار ولم ينل	أجراً ولا حمداً لغير موفق

وله أشعار حسنة، وأقوال جليلة متينة، ذكر النووي في مقدمة المجموع والذهبي في سير أعلام النبلاء طائفة حسنة من أقواله ينبغي لطالب العلم أن يتأملها، فإنها صادرة عن حكيم من حكماء الأمة، ولو جمع أحد أقواله ورقمها ورتبها وعزاها إلى مصادرها ونشرها لرجوت له في ذلك خيراً كثيراً.

من أقواله النيرة ما قاله في مقدمة كتابه الرسالة: (فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدلالة على سبيل الهدى فيها).

وقال: (ضياح العالم أن يكون بلا إخوان، وضياح الجاهل قلة عقله، وأضيق منهما من واخى من لا عقل له).

وقال: (إذا خفت على عملك العُجب، فاذكر رضي من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب؛ فمن فكر في ذلك صغر عنده عمله).

إلى غير ذلك من حكمه العجيبة.

- وكان وافر العقل حاد الذكاء سريع الحفظ جليل القدر صاحب فراسة وكياسة، وكان جميل الحلقة حتى قال المزني: لم أر أحسن وجهاً من الشافعي.
- توفي رحمه الله سنة ٢٠٤هـ.
- وقد عدّه الإمام أحمدُ المجدّد الثاني.

□ قوله: (قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : (هَذِهِ السُّورَةُ لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هِيَ لَكَفَتْهُمْ)).

لا أعرف مصدر هذه العبارة بهذا النص في كتب الشافعي لكنها مشهورة عنه بالفاظ مقاربة؛ فقد قال النووي في المجموع عن الشافعي أنه قال: (الناس في غفلة عن هذه **السورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾** ❖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: **لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفّتهم**. وهو كما قال).

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (قال الشافعي، رحمه الله: **لو تدبر الناس هذه السورة لكفّتهم**).

وقال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة: (قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ). قال الشافعي - رضي الله عنه: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفّتهم. وبيان ذلك أن المراتب أربع، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداهما: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلّمه والعمل به وتعليمه، فذكر - تعالى - المراتب الأربع في هذه السورة).

وهذه السورة بينت للمسلم منهاج النجاة من الخسران، فمن أخذ بأسباب النجاة نجا، ومن تركها هلك وخسر، فهي حجة بينة كافية.

ولعظيم ما دلت عليه هذه السورة كان من فقه الصحابة رضي الله عنهم كثرة قرائتها في المجالس والتذكير بها ففي معجم الطبراني وصحيح ابن حبان وشعب الإيمان للبيهقي من حديث حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي مدينة الدارمي رضي الله عنه وكانت له صحبة قال: (كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ❖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ... ﴿ ثم يسلم أحدهما على الآخر). وقد صححه الألباني رحمه الله.

شرح قول الإمام البخاري رحمه الله

قوله: (وَقَالَ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : (بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ).

- البخاري: هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن بردزبة وهي كلمة بخارية تعني الزَّرَاع كما ذكر ذلك الذهبي في السير.

- ولد سنة ١٩٤ هـ، وكان والده ورعاً حريصاً على الكسب الطيب، ومات ومحمد صغيراً فنشأ يتيماً.

- قال محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟ قال: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب.

فقلت: كم كان سنك؟

فقال: عشر سنين، أو أقل.

ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره؛ فقال يوماً فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم.

فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل. فدخل فنظر فيه، ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام؟

قلت: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم، فأخذ القلم مني، وأحكم كتابه، وقال: صدقت.

فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال ابن إحدى عشرة سنة. قال: فلما طعنت في ست عشرة سنة، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء - يعني أصحاب الرأي - قال: ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي بها! وتخلفت في طلب الحديث).

- قال البخاري: (كنت عند إسحاق بن راهويه، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابا مختصرا لسنن النبي صلى الله عليه وسلم، فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب)

يقصد صحيحه الذي هو أصح الكتب المصنفة.

- قال ابن أبي حاتم سألته: هل من دواء يشربه الرجل، فينتفع به للحفظ؟ فقال: لا أعلم، ثم أقبل علي، وقال: (لا أعلم شيئاً أنفعَ للحفظ من نهمة الرجل، ومداومة النظر).

- وكان صاحب ورع عظيم روي عنه أنه قال: (ما اغتبت أحدا قط منذ علمت أن الغيبة تضر أهلها).

- وكان صاحب صلاة وتلاوة وتدبر إذا أقبل على التلاوة والصلاة فكأنه ذاهل عن غيرها.

- قال بكر بن منير: كان محمد بن إسماعيل يصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة.

فلما قضى الصلاة، قال: انظروا أيش آذاني.

فلما كشفوا قميصه وجدوه قد أثر فيه جداً حتى ورم بعض جسده.

- ف قيل له : لِمَ لم تخرج من صلاتك أول ما أبرك ، قال : كنت في سورة فأحببت أن أتمها .
- ولقد أودى رحمه الله في آخر حياته وطرده من بلده بسبب كيد حساده ، وجرت له محن ، وصبر على بلاء كبير .
- قال عبد القدوس السمرقندي : جاء محمد إلى أقربائه بخرتكن ، فسمعتة يدعو ليلة إذ فرغ من ورده :
- (اللهم إنه قد ضاقت علي الأرض بما رحبت ، فاقبضني إليك) . فما تم الشهر حتى مات .
- والكلام في سيرته وما فيها من الفوائد العلمية والتربوية يستدعي محاضرة بل محاضرات .
- وقد كان رحمه الله حريصاً على اتباع السنة .
- قال النجم بن الفضيل : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، كأنه يمشي ، ومحمد بن إسماعيل يمشي خلفه ، فكلما رفع النبي صلى الله عليه وسلم قدمه ، وضع محمد بن إسماعيل قدمه في المكان الذي رفع النبي صلى الله عليه وسلم قدمه .
- وكان حريصاً على الثبوت في العلم ، قال رحمه الله : (إني ما أثبت شيئاً ، بغير علم قط منذ عقلت) .
- مات رحمه الله سنة ٢٥٦ هـ .

□ قوله : (العلم قبل القول والعمل) هذا باب في كتاب العلم من صحيحه ، وهذا الكلام نقله الشيخ بالمعنى وزاده توضيحاً ولعله كتبه من حفظه .

ونص عبارة البخاري رحمه الله : (باب العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ؛ فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ) .

فاستدل له بقول الله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فلما بدأ بالعلم قبل القول والعمل كان ذلك دليلاً على تقديم العلم ، والاستغفار قول ، وهو أيضاً عمل لأنه عمل صالح .

وتقديم العلم على العمل يدل عليه العقل أيضاً فإن العمل بلا علم عمل على غير هدى ، وما كان على غير هدى فإنه لا يقبل ، فكان تقديم العلم على العمل واجباً .

وتقرير هذا الأمر مهم في تفهيم الناس العقيدة الصحيحة، فإن بعض من يقع في الشرك في العبادة يعمل أفعالاً من الصلوات الصدقات والحج وغيرها فيرى أنه قد أدى ما عليه، ويستدل بقيامه بهذه الأعمال على أنه على الحق.

فأراد الشيخ أن يبين أن العلم بالهدى مقدم، وأن الأعمال إذا لم تكن مبنية على الهدى فإنها باطلة مهما بلغت كثرتها وظن صاحبها أنها تنفعه.

فإن من كان يقوم بهذه الأعمال ويشرك في عبادة الله فيذبح لغير الله ويدعو غير الله ويقدم النذور لغير الله فهو مشرك كافر بالله عز وجل خارج من دين الإسلام وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم.

فإنه لا ينفع مع الشرك عمل لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

فلهذا أورد الشيخ رحمه الله قول البخاري.